Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 37:3 (2002)

النظام المعرفي عند البيروني في دراسته لعلم الأديان من خلال منهجيته في الديانة الهندية

أحمد فاضل يوسف

مقدمة*:

قَسَّم علماء المسلمين الأديان إلى قسمين؛ صحيحة وغير صحيحة، سماوية و دنيوية، موحى بها وغير موحى بها (إنسانية، أو طبيعية)، أديان تدين بإله واحد، وأخرى على خلاف ذلك على ما قاله الشهرستاني في كتابه **الملل والنحل**[1]. وفي معظم الأحيان كان اجتهادهم في هذا التصنيف مبنيًّا على نصوص مقتبسة من القرآن الكريم، أو السنة النبوية المطهرة، أو آراء من سبقهم من العلماء، وانصبت دراسة العلماء المسلمين في هذا الحقل من حقول المعرفة ـ دراسة علم الأديان ـ على الديانتين اليهودية والمسيحية، بالإضافة إلى مجموعة من الفرق والطوائف الدينية الإسلامية، وذلك لاعتبارات عديدة أهمها؛ ١- تركيز القرآن الكريم على ذكر تاريخ هاتين الديانتين وفلسفتهما، ٢- الفتوحات الإسلامية، ٣- وجود أبناء الديانتين في دار الإسلام، ٤- ازدهار حركة الترجمة في العصر العباسي، وغيرها. وقد يندر أن يخالف أحد من العلماء المسلمين سابقا هذا المنهج، وكذلك من المعاصرين الذين دَرَسوا كتب الفلسفة، أو تاريخ الأديان الموحى بها، بشكل علمي مقبول.

أما دراسة وظيفة علم الأديان فتتركز ـ كما ذكرها طه الهاشمي في كتاب **تاريخ الأديان وفلسفتها** على النظر في منشأ الأديان وكيفية تطورها من وجهتين؛ **الأولى**: دراسة تاريخ الأديان، وهذا يتضمن البحث في تطور المعتقدات الدينية التي طرأت على الإنسانية وبضمنها معتقدات الشعوب البدائية المتوحشة، وطقوسها الدينية، بالإضافة إلى الأقوام المتمدنة، مشيراً إلى المراحل التاريخية التي مرت بها تلك الديانات وكيفية تكاملها على ما هي عليه في الوقت الحاضر مع التركيز على دراسة الظاهرة الدينية المعاصرة ودراسة الحركات والفرق والطوائف الدينية. أما **الثانية**: فهي دراسة فلسفة

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الأديان، ويتم ذلك من خلال "البحث في العلاقات بين الأسس التي تستند إليها الأديان المختلفة"(٢)، أي الأسس والمفاهيم التي بنيت عليها معتقدات تلك الديانات القديمة منها والحديثة. لذلك فدراسة علم الأديان تعتمد على حقلين مرتبطين كلاهما بالأخر، وهما: تاريخ الأديان وفلسفتها، فدراسة الديانة الهندية مثلا لا بد أن تتبيَّن من خلال تاريخها وفلسفتها، وكذلك إذا أردنا البحث في الديانة البوذية فلا بد من النظر في عللها وأسباب وجودها من خلال عرض وشرح فلسفتها، وهكذا الحال أيضاً بالنسبة للبحث عن ظواهر المسيحية وطقوسها وتكاملها الحالي، فإن ذلك لا يتم إلا عبر الكشف عن مفهومها ودراسة تاريخها، حيث إن الغرض من دراسة تاريخ الأديان هو معرفتها. لهذا فإن تاريخ علم الأديان "يبحث عن منشأ الأديان وتطوراتها، وأوجه الاختلاف أو الاتفاق فيما بينها"(٣).

من خلال هذه المقدمة تنجلي أهمية دراسة علم الأديان، كحقل من حقول المعرفة، يتعرف فيه الباحث على حضارات وشعوب العالم المختلفة، قديما وحديثا، وكيف أن الدين لا زال يمثل ركنا أساسيا في بناء تلك المجتمعات والحضارات. ومن العلماء المسلمين الذين أبدعوا في دراستهم وإنتاجهم في هذا الميدان وقدموا للأمة الإسلامية وللعالم أجمع نموذجا حيا اقتدى به غير المسلمين قبل أهله المسلمين، هو العالم المفكر الباحث الفيلسوف أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني (٣٦٢هـ/٩٧٣م ـ ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، الذي ولد من أصل فارسي بضاحية من ضواحي خوارزم (حاليا أحد أقاليم تركستان).

إن اختيار موضوع **النظام المعرفي عند البيروني في دراسته لعلم الأديان** جاء نتيجة للتساؤلات التالية: هل انطلق البيروني في إنجازاته وتصنيفاته في علم الأديان وخاصة الديانة الهندية من منهجية علمية ونظام معرفي محدد؟ وما هي ملامح هذا النظام؟ وكيف تعامل من خلاله مع التراث المعرفي الإسلامي أو مع تراث الإغريق واليونان والهند؟

ستحاول هذه المقالة الإجابة على هذه الأسئلة بصورة عامة وشاملة، موثقة بمصادر عربية وأجنبية، وذلك من خلال عرض مبسط لنشاطات البيروني العلمية، مع نبذة مختصرة عن طبيعة النظام المعرفي للديانة الهندية، والتي تعامل معها البيروني، وساعدت في تكوين منهجيته العلمية في دراسة الأديان. يضاف إلى ذلك تحليل وتوثيق النظام المعرفي الذي تعامل معه البيروني، ومنهجيته العلمية في دراسته للديانة الهندية.

نشاطاته العلمية:

إن إنتاجات البيروني العلمية في حقول المعرفة والعلوم المختلفة كالفلك والرياضيات والطب والصيدلة والجغرافية والتاريخ والأدب قد سبقت بكثير ما أنتجه في علم الأديان. لذلك فإن شخصيته العلمية انعكست تماما فيما قدمه لخدمة العلم والإنسانية من مختلف العلوم والمعارف. وقد شهد له

بذلك علماء المسلمين وغيرهم، فألفوا عنه ودرسوا ودرَّسوا كتاباته، حيث ترجمت إنتاجاته الرئيسية إلى لغات عديدة من ذلك كتابه: **تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة**، أو ما يسمى بـ **كتاب الهند** الذي حققه وترجمه إلى الإنجليزية المستشرق الألماني إدورد سي.سخاو (Edward C. Sachau) بعنوان: (Al-Beruni's India)(٤). كذلك ما ترجمه البيروني من لغات أجنبية إلى العربية لخير دليل على مؤهلاته وملكته في علم اللغات، حيث ترجم من السنسكريتية (Sanskrit) وهي اللغة القديمة للكتابات المقدسة في الديانة الهندية، كتاب: **باتنجل** (Batanjal) الذي يعتبر المصدر الوحيد لكتاب المذهب اليوجا (Yoga) عند معظم الهنود، وأصحابه يؤمنون بإله واحد أزلي، وهم يميلون إلى التزهد، ويعتقدون في عبادة عميقة جدا خاصة بهم(٥).

لم تنحصر نشاطات البيروني العلمية في النظر في معتقدات الهنود وفلسفتهم الدينية، بل تعدَّى ذلك إلى دراسات أرسطو، وأفلاطون، وبطليموس، وجالينوس ونظرياتهم الفلسفية. ففي حقل النظام الفلسفي العام نجد أن البيروني قد قارن بين نظامين فلسفيين عظيمين وهما النظام الفلسفي عند الهنود، والنظام الفلسفي عند الإغريق، وكان يهدف بذلك إلى تقريب وجهة نظر الفلسفة الهندية إلى القارئ المسلم بمقارنتها مع نظام فلسفي متعارف عليه عندهم مثل النظام الفلسفي الإغريقي(٦).

أما عن منهجية البيروني في **كتاب الهند** فكانت تتركز على بنية هذا الكتاب، حيث نجد في تمهيد الكتاب ومقدمته معلومات وحقائق ثابتة عن الديانة الهندية والتكوين العرقي في الهند، وإن حوالي ٤٨ فصلاً من مجموع ٧٠ تضمنت عرضاً شاملاً لإنجازات العلوم في الحضارة الهندية من مختلف الحقول، مثل قواعد اللغة، والفلك، والتنجيم، والكون، وتاريخ الحضارات، والرياضيات. أما ما بقي من فصول (٢٢ فصلاً) فتكاد تتركز على طبيعة العلاقة بين الدين والفلسفة حسبما يراها الهنود؛ ففي ١٢ فصلاً الأولى و ١٠ فصول أخرى يتعرض البيروني مباشرةً إلى طبيعة الفلسفة والديانة الهندية، حيث يدور محور النقاش في الفصول الأولى حول عقيدة الهنود، مثل الإله، والخلق، والكون، والخلاص، وعبادة الأوثان، بينما تدور الفصول الأخيرة حول الطقوس الدينية، مبدأ التعميد، مراسم دفن الموتى، والأضحيات والقرابين المفروضة، ونظام الأكل والصوم، والحج، ومراسيم الأعياد والأفراح الدينية. وعن مؤلفاته الأخرى فقد ذكر علي أحمد الشحات بأنها وصلت إلى ١٨٠ كتابا، وذلك حسب موضوعاتها، وأماكن وجودها، وما نشر أو ترجم منها(٧)، حيث يمكن أن نجد إنتاجات البيروني العلمية في لغات وأماكن مختلفة مثل الهند، وإيران، وروسيا، وتركستان، وأوزبكستان (التي بنيت فيها جامعة البيروني في طاشقند)، وتركيا، والعراق، بالإضافة إلى معظم دول أوربا الغربية، وأمريكا

الشمالية. ولعل ما يخلد ذلك التراث العلمي إقامة العديد من المؤتمرات والندوات العلمية العالمية احتفاء بتخليد ذكرى البيروني وإنتاجاته في حقول المعرفة، من بينها ندوة كلكته في الهند عام ١٩٥١م والتي نظمتها الجمعية الإيرانية، والمؤتمر العالمي الذي نظمته وزارة التربية في جمهورية الباكستان بالتعاون مع اليونسكو (UNESCO) عام ١٩٧٣م حيث قدم فيه ٧٤ بحثا عن البيروني، بالإضافة إلى ندوة المركز الإيراني في جامعة كولومبيا في نيويورك عام ١٩٧٦م(٨). وجميع أعمال هذه الندوات تم توثيقها وتحقيقها وإخراجها على شكل مصادر علمية أكاديمية يمكن للباحث الاطلاع عليها بسهولة.

النظام المعرفي في الديانة الهندية:

أما عن النظام المعرفي في الديانة الهندية فهو مبني على إمكانية معرفة "الحقيقة المطلقة" باعتبارها مركز كل شيء، ولذلك نجد الهنود ومنذ آلاف السنين يتساءلون عن ماهية "المطلق" وماذا يعني وكيف يُعرف؟ وما هي علاقته "بالحقيقة" و "المعرفة"؟ ونجد أنشودة من الكتاب المقدس رك فيدا (Rig Vida) ذكرت في جزئها العاشر (١٠٠٠ سنة قبل الميلاد) ما يلي:

"من هو في الحقيقة يعرف؟ ومن هو الذي يدعي المعرفة؟ ومتى ظهرت؟ ومتى حدث هذا الخلق؟ والآلهة جاءت بعد ذلك بخلق العالم. من هو إذن الذي يعرف متى نهضت المعرفة؟ ومتى قام الخلق؟ ... الذي ينظر إليها نظرة دنيا من أقصى الجنة هو فقط الذي يعرف، أو ربما هو لا يعرف". (رك فيدا ٦-٧، ١٠/١٢٩)(٩).

وللإجابة على هذه الأسئلة نجد أن الفلاسفة الهنود قدموا مقترحات وتجارب عديدة لمفاهيم متنوعة تدور حول ماهية "الحقيقة المطلقة" بدأت من آلهة قبائل الآريين (Aryans) القديمة التي استوطنت في شمال الهند إلى المفهوم الحديث للإله أو الآلهة في الديانة الهندية المعاصرة، كذلك من القوة التي تتمثل في طقوس النار إلى النظام الكوني الداخلي، ومن برهمان (Brahman) الحقيقة المطلقة والمصدر السماوي وجوهر الكون المذكور في تعاليم أبانشادز (Upanishads) (١٠) إلى شكتي (Shakti) التي تمثل الطاقة السماوية للإله الأنثى وهي زوجة خاصة للإله شيفا (Shiva) إذْ من خلال ممارسة بعض التخيلات والطقوس الروحية بنماذج جنسية يمكن الوصول إلى الخلاص والتحرير.

ويؤكد ثيودور م. لدوج Theodore M. Ludoig بقوله: "من خلال نظرتنا السريعة لهذا التراث المعرفي عند الهنود الذي تكوّن خلال آلاف السنين، علينا أن نركز على ثلاثة أجوبة رئيسية تتعلق بالسؤال عن ماهية "المطلق المقدس" وهي برهمان (Brahman) والدَّهرْما (Dharma)(١١) والإله God أو الآلهة gods"(١٢).

من هنا نستنتج بأن النظام المعرفي في الديانة الهندية قائم على طريقة التفكير في "الابانشادز" الذي يعتبر الجزء الأساسي الـذي تقوم عليه الفلسفة الهندية، حيث تنجلي المعرفة فقط لهؤلاء الأشخاص الذين تعلقوا بها روحيا وأدوا تعاليمها.

والحقيقة المفترضة "لطريق المعرفة" The Way of Knowledge، كما يفهمه الهنود هو الإيمان بأن تعاسة وسوء البشرية سببه الجهل ... أو خلل عقلي متأصل في تعاسة الإنسان وانحطاطه(١٣). وهذا ما اتفقت عليه جميع الأنظمة الفلسفية في الديانة الهندية المتفردة في هذه الخاصية.

النظام المعرفي لدى البيروني ومنهجيته:

أما عن النظام المعرفي الذي انطلق منه البيروني في دراسته للهند فإنه بني على نماذج وأطر فلسفية اختلفت في مصادرها ومدلولاتها، حيث نجد أن أساس هذا النظام مبني على جوهر العقيدة الإسلامية وهو التوحيد. وبالإضافة إلى ذلك فقد جعل البيروني من مهارته في العلوم الطبيعية من فلك ورياضيات وهندسة وغيرها ما يضفي على هذا النظام مدلولا آخر مكّن البيروني من التعامل مع الديانة الهندية ليس فقط على أساس ومنطق فلسفي بل علمي وتجريبي، فعلى سبيل المثال كان يستخدم الرموز الرياضية في مسألة تعدد الآلهة لدى الهنود، وكذلك أفراد المجتمع الهندي الذي ينقسم إلى طبقتين متباينتين في مفهوم الإله وتعدد الآلهة، وهم الخاصة والعامة، المثقفين وغيرهم.

أما المدلول الآخر الذي ساعد البيروني في بناء نظامه المعرفي الذي ساعده في دراسة الهندية فهو اطلاعه الواسع على حضارات وفلسفات الإغريق واليونان بالإضافة إلى الديانتين اليهودية والمسيحية، والتي كان لعلماء المسلمين الدور الفعال لدراستها والنظر في مصادرها خاصة في المفهوم الكلي للكون والإنسان والحياة.

كذلك يمكن القول بأن البيئة الاجتماعية والجغرافية التي نشأ فيها البيروني وتثقفَ كانت الأساس في تكوين شخصيته العلمية وتطلعاته التي أهّلته للانطلاق من نظام معرفي نموذجي ساعده على السير برفقة السلطان محمود الغزنوي أثناء غزواته إلى الهند التي استمرت حتى عام ١٠٢٤م، إذ "صاحب البيروني السلطان الغزنوي ثلاث عشرة مرة في غزواته هذه، حيث أتيح له فيها أن يحيط بعلوم الهند"(١٤).

ولذلك يمكن أن نستنتج بأنه كان للبيروني نظام معرفي محدّد ومسبق من دخوله إلى الهند، مكّنه من التعامل والبحث بدقة في عقائد وفلسفات الديانة الهندية، حتى صار متمكنا بمهارات عالية في المناظرات مع رجالها. وهذا يدل على أن النظام المعرفي الذي انطلق منه البيروني كان دقيقا وواضحا

تسوده الموضوعية والتركيز المباشر، خاصة في المنهجية العلمية التي اتبعها في البحث عن مصادر المعرفة بالديانة الهندية. وعن خصائص هذه المنهجية يستطرد المستشرق سخاو يقول:

"لقد تناول (البيروني) موضوعه بعقل دربته الدراسات الرياضية والفلسفية: دراسات أرسطو، وأفلاطون، وبطليموس، وجالينوس. وكان يفحص كل موضوع بالروح النقدية للعصر الحاضر، وبطريقة نال بها إعجاب العلماء المحدثين. لم يكن (البيروني) فريسة للخرافات، ولقد تفانى في الموضوع الذي يدرسه كل التفاني، ولم يترك جهداً ولا وقتاً إلا بذله في سبيل دراسته، وتحقيق القضايا التي كان بصددها. ولم يمنعه إسلامه من تقدير الفلاسفة البوذيين واستحسان الكثير من نظرياتهم ... وقد بلغ من إنصافه وعدم تحيُّزه ـ ذلك الإنصاف الذي اعتبره كثير من المسلمين مغالاة ـ أن القارئ يتلو صفحات كثيرة من **كتاب الهند** فلا يلاحظ أن الكاتب مسلم"(١٥).

وعن تحديد عناصر النظام المعرفي عند البيروني يمكن أن تستخرج من خلال منهجيته **العلمية** التي تبدو واضحة ودقيقة في جميع ما كتبه عن مختلف العلوم، حيث يمكن أن تفسر عن طريق محاولة البيروني للتوصل إلى وحدة الأشكال المختلفة من المعارف والموجودات تحت مبدأ عقيدة التوحيد. أما عن وجهة نظره في كيفية الحصول على المعرفة والطرق المؤدية إليها فهو ما يدور في نظامه الفلسفي من أفكار ومنهجية علمية تشير إلى أن للمعرفة الخاصة نشاطاً وحيويةً تنعكس في اعتقاده وتتطور من أشكال معينة من المعارف والتي في نفس الوقت تستمد فعاليتها من المعرفة الأساسية المرتبطة بالوحي. لم يتخلّ البيروني مطلقاً عن هذه الخاصية من المعرفة التي كان يجدها في الكتب المقدسة وهي تقدم نظاماً محدداً لجميع العلوم الإنسانية المتغيرة والمتطورة تبعاً للزمان والمكان.

من هنا يقف البيروني كنموذج للمفكر الذي حاول أن يجمع من خلال رؤيته العقلية بأشكال مختلفة من المعارف والعلوم مبتدئاً بالعلوم الطبيعية ومنتهياً بالدين والفلسفة، وهذا الذي أهله ليكون أول عالم عاش في زمن تقليدي يخضع ويطور مجموعة من فروع العلوم دون أن يكون عبداً لها أو يسقط تحت تأثيراتها الهدامة، كما نرى في وقتنا الحاضر.

لذلك فإن طريقة البيروني العلمية ومنهجه المعرفي ـ خاصة فيما أنتجه عن علم الأديان وعرضه من معتقدات وفلسفة وجوهر الديانة الهندية ـ تميّزت بعقلية علمية نادرة المثال، واسعة الاطلاع، شاملة المعرفة، قادرة على الاستقراء والاستنتاج، وهي تتمثل بصفات علّق عليها صلاح الدين عبد اللطيف الناهي في كتابه: **الخوالد من آراء أبي الريحان البيروني في أسباب التمدن والمنهج الموازن واستعراض الثقافات**، وقال بأنها:

"جرت على منهج في البحث من التزام العدل والموضوعية والاقتصار على الوصف والاقتصاد

في النقد، ومنه تلك المقايسة والموازنة بين مختلف فروع المعرفة والثقافة، فقد جعل هذا النهج من البيروني رائدا من رواد فن الموازنة بين اللغات والعقائد والعوائل الشرعية(١٦). ويضيف صلاح الدين الناهي على منهج البيروني في "المقايسة" بين الثقافات والحضارات المختلفة فيقول: "فمن موازناته (أي البيروني) العالية (في البحث والدقة) بين حضارة الهند وثقافتها، وبين ما كان عليه اليونان قبل النصرانية من حضارة وثقافة إشارة إلى الشبه الكبير بين الهند وبين اليونان في تلك العصور، وإلى تفرد اليونان على الهنود بالفلاسفة الذين "نقّحوا الأصول"(١٧).

والبيروني استخدم نفس طريقة "المقايسة"(١٨) في دراسته لنظام الطبقات الاجتماعية في الهند وإيران مشيرا إلى المصدر القرآني في سورة الحجرات حيث يقول تعالى: ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوْبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوْا....**﴾ (سورة الحجرات: الآية: ١٣)(١٩)، وكذلك لمفهوم تعدد الآلهة عند الهنود واليونانيين قياسا على مفهوم الإله الواحد لدى اليهود والنصارى والتوحيد عند المسلمين، وذلك باستخدام منهجية معرفية مميزة بدقتها وأصالتها وعدالتها. وعن طريقة أدائها يؤكد البيروني ذلك بقوله في مفهوم الإله: "... فأورد كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله، لتعريف المقاربة بينهم... ولم أذكر من كلامهم كلام غيرهم، الا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى، لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد"(٢٠). ويضيف قائلا: "إن اليونانيين أيام الجاهلية قبل ظهور النصرانية، كانوا على مثل ما (كانت) عليه (الديانة) في الهند من العقيدة، خاصّهم في النظر قريب من خاصّهم (البراهمانيون)، وعامهم في عبادة الأصنام كعامّهم (طبقة المنبوذين)، ولهذا استشهد من كلام بعض على بعض (في الإيمان والعقيدة) بسبب الاتفاق وتقارب الأمرين، لا التصحيح، فإن ما عدى الحق (الإسلام) زائغ والكفر ملة واحدة، من أجل الانحراف عنه"(٢١). وعن مقايسته في عقائد الديانة الهندية يحدثنا البيروني عن موضوع تناسخ الأرواح فيقول: "كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية، والإسبات علامة اليهود، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية...." (٢٢).

ويبدو أن طريقة المقايسة التي اتبعها البيروني في دراسته للثقافات والحضارات وخاصة الهندية منها واضحة وقريبة الفهم لدى العقل المسلم. وكيف يتم ذلك والبيروني ليس من أصل هندي ولا من تربية ثقافية أو دينية تميل إلى الهند ولم يكمل دراسته في أي حقل من حقول المعرفة في ما يتعلق بالديانة الهندية؟ بعد أن أتقن البيروني تعلمه للغة السنسكريتية، اللغة التي بنيت عليها حضارة الهند الدينية والثقافية، استخدم البيروني طريقتين متوازيتين للوصول إلى معارفه العلمية عن

ديانة الهنود وهي **الطريقة النظرية** واعتمد فيها على دراسة وتحليل الكتب المقدسة الهندية وتفاسيرها من قبل رجال الدين في الهند بالإضافة إلى ما كتب عن الأساطير والخرافات والمؤسسات الدينية التي يقوم عليها المجتمع الهندي. أما الطريقة الثانية، فهي **الطريقة العملية** التي قدم من خلالها البيروني تحليلا كاملا لجوهر وحقيقة الديانة الهندية والتي لم يسبقه أحد فيها سواء من علماء الهنود أو من غيرهم، مسلمين أو غير مسلمين، في الماضي والحاضر. وعن هذه الطريقة يصور البيروني موقفه وشعوره فيقول:

"إني كنت أقف من منجميهم مقام التلميذ من الأستاذ لعجمتي فيما بينهم وقصوري عما هم فيه من مواصفاتهم، فلما اهتديت لها أخذت أوقفهم على العلل، وأشير إلى شيء من البراهين، وألوِّح لهم بالطرق الحقيقية في الحسابات، فانثالوا علي متعجبين، وعلى الاستفادة متهافتين، يسألون عما شاهدته من الهند، حتى أخذت عنه، وأنا أريهم مقدارهم، وأترفع عن جنبتهم، مستنكفا، فكادوا ينسبونني إلى السحر، ولم يصفوني عن أكابرهم بلغتهم إلا بالبحر...." (٢٣).

في الحقيقة إن مثل هذا الموقف من علماء الأمة الإسلامية في ذلك العصر، خاصة في ميدان دراسة علم الأديان، يذكرنا بشخصيات إسلامية معاصرة، انفردت في حقل النظام المعرفي بالتزامها الطريقتين النظرية والعملية في منهجية البحث العلمي، أمثال إسماعيل الفاروقي الذي كتب في النصرانية واليهودية مقايسة بالإسلام الكثير. والبحث في نظامه المعرفي وما قدمه في الأديان يحتاج إلى دراسات مستقلة ليس من الإنصاف والحكمة عرضها على هذه الورقة.

وربما يتساءل أحد عن هوية هؤلاء العلماء المسلمين الذين توغلوا في بحث ودراسة الأديان والعقائد للأقوام والحضارات غير الإسلامية، ما نوع هذه الهوية؟ وهل كانت هذه الدراسات مبنية لإثبات شرعية العقيدة الإسلامية وهيمنتها على سائر الأديان وعقائد البشر الأخرى؟ أم هي عبارة عن واجب تعبدي يهدف لاكتساب علم ومعرفة دنيوية تخدم الأمة الإسلامية وتضفي على تراثها علما من علوم المعرفة وذلك من خلال دراسة الأديان وفلسفتها خارجة عن أو قياسا بالدين الإسلامي؟

وهل يمكن التوقع بوجود مؤثرات خارجية مكتسبة من الأديان الخاضعة للدراسة والبحث على شخصية وهوية الباحث المسلم، سواء أكان ذلك في ثقافته العامة، أو في شخصيته أو في عقيدته الإسلامية؟ يقدم البيروني ومن خلال منهجه المعرفي نموذجا عن ما كتبه في الديانة الهندية، فيقول: "والموجود عندنا من كتب المقالات (عن الديانة الهندية)، وما عمل في الآراء والديانات (الهندية)، لا يشتمل إلا على مثله، ... ومن عرف حقيقة الحال كان قصارى أمره أن يجعلها من الأسمار والأساطير، يسمع لها تعليلا بها والتذاذا، لا تصديقا لها واعتقادا"(٢٤).

غير أن مثل هذا النظام المعرفي الذي استخدمه البيروني في دراسته الموضوعية للهندية وجوهر فلسفتها وعقيدتها لا يمنعه من التصريح والجهر بالتباين بين الهنود والمسلمين. فمن ذلك يقول: "إنهم يباينوننا (نحن المسلمين) بالديانة مباينة كلية، لا يقع منا شيء من الإقرار بما عندهم، ولا منهم بشيء مما عندنا"(٢٥).

وهكذا نجد أن البيروني وفي أماكن متعددة من **كتاب الهند** يستخدم تضمينات قرآنية بلغة عربية فصحى على سبيل المقايسة بين الهندية والإسلام لإسناد مسألة معينة، ويؤكد ذلك الأستاذ صلاح الدين المنجد بقوله: "ويدل على تمكنه من اللغة (العربية) عن طريق حفظ القرآن الكريم، واستشهاده دائما بآياته، فكأنما وضعت الآيات أمامه فهو يختار منها للاستشهاد ما يوافق المطلوب"(٢٦). فعند تعليقه على مذهب "اليوجا سوتراس" (Yoga- Sutrtas) في الفصل السادس من **كتاب الهند**، نراه يستشهد بالنص القرآني في سورة الكهف (الآية ٨٣) حيث يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوْا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (سورة الكهف: الآية: ٨٣)، كما فسره الصوفيون. كذلك وفي نهاية الفصل نفسه، نرى البيروني يستخدم نصا قرآنيا آخر في سورة البقرة (الآية ٦٨) حيث يقول تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُوْلُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوْا مَا تُؤْمَرُوْنَ﴾ (سورة البقرة: الآية: ٦٨). وفق المفهوم الصوفي أيضاً، وذلك لتقريب مفهوم قوى ما وراء الطبيعة في الهندية (Supernatural Powers) وعلاقتها بالإنسان بما يقايسها بالعلاقة بين الفرد وربه في الإسلام(٢٧)، وهذا بدوره يوضح وجهة نظر المفاهيم الدينية في الهندية لدى العقل المسلم، خاصة في مفهوم العقيدة والإيمان والعبادات. من هنا يتساءل بروس ب. لورنس (Bruce B. Lawrence) في بحث قدمه عن **طريقة المقارنة التي استخدمها البيروني في دراسته للثقافة الهندية والنظام المنهجي الذي اتبعه**، فيقول:

"الإدارة والإصرار للبحث في "الواحد" (إله) بين "مجموعة" (آلهة) هي التي جعلت البيروني المكتشف الأول في تشكيل طريقة منهجية لدراسة الأديان مهما كانت مصاعب اللغة لفهم النص أو معوقات قد تبدو من خلال التزامه بعقيدته الإسلامية"(٢٨).

وهكذا نجد البيروني يستخدم هذه الطريقة المنهجية للمقايسة بين علوم الوحي والتراث الإسلامي وبين معظم العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية التي تناولها في دراسته كالفلك، والرياضيات، وتاريخ الحضارات، والجغرافية، والإنسان، والفلسفة، وأديان العالم جميعا، سماوية كانت أو غير ذلك، تتصدرها موسوعته عن أديان ومعتقدات الهند. وبهذه الطريقة المنهجية يكون

البيروني أول عالم مسلم بتاريخ الأمة يستخرج نظاما معرفيا خاصا لدراسة علم الأديان، مركزا بذلك على إنتاجاته عن الديانة الهندية. لقد كان كل ذلك من أجل "البحث الشخصي للوصول إلى الحقيقة (Truth)"(٢٩).

الاستنتاجات:

ومما تقدم تتبين لنا بعض الاستنتاجات التي من الممكن أن تساعد الباحث في دراسة علم الأديان، وذلك من خلال ما قدمه البيروني من نظام معرفي ومنهجية علمية أصيلة في دراسته للديانة الهندية، نوجزها في ما يلي:

١) استخدام منهج "المقايسة" وليس "المقارنة" في دراسة علم الأديان مع التأكيد من الالتزام بالحياد والموضوعية والأمانة العلمية في اختيار موضوع البحث بالإضافة إلى تجنب الميول الشخصية العاطفية التي من الممكن أن تكون عائقا في أصالة ونوعية نتائج البحث المتوقعة.

٢) بعد توفير مستلزمات البحث وإتقان المهارات المتطلبة لذلك يفترض أن يؤمَّن نوعٌ من الحرية الأكاديمية للباحث للغوص في دراسته يمكن أن تسمى بـ "الحصانة العلمية" خاصة فيما يتعلق بالنقد البناء الموضوعي للأديان.

٣) اعتماد طريقتين في منهجية البحث عن الأديان ـ كما هو منهج البيروني في نظامه المعرفي عن الديانة الهندية ـ أولاهما: طريقة نظرية تعتمد على مراجعة وتدقيق وتحليل المعلومات الواردة في المصادر الرئيسة المكتوبة عن تلك الديانة، مثل الكتاب المقدس إن كان موجودا، وثانيتهما: طريقة تجريبية، عملية، ميدانية، يتم من خلالها التعرف عن طريق المشاهدة والملاحظة المباشرة على نشاطات المؤسسات الدينية وتطبيق التعاليم المقدسة من عبادات وشعائر وطقوس واحتفالات. وهاتان الطريقتان متلازمتان حيث لا يمكن فصل واحدة عن الأخرى، خاصة إذا أردنا معرفة حقائق وجوهر دين من الأديان.

٤) يفترض بالباحث في الأديان أن يتسم بمهارات "الدبلوماسية" والتمرس على طريقة المناظرة في الحديث والنقاش خاصة عندما يكون الحوار حول مسألة معينة مع كبار مفكري وعلماء الديانة التي يفترض دراستها، آخذا في عين الاعتبار المكان والزمان والهيئة التي يتم فيها الحوار.

٥) اعتمد البيروني في طريقته الميدانية لاستقاء المعلومات على طبقة المثقفين من رجال الديانة الهندية وهم "البراهما" (Brahmas) و "الكشترايا" (Kshatriyas)، بالرغم من أن عددهم محدود جدا قياسا بالملايين ـ غير المثقفين ـ من الهنود الذين ينتمون إلى الطبقة السفلى أو الـ (Sudras) من مجموع الطبقات الأربع أو الألوان (Varnas) التي يتكون منها المجتمع الهندي. وأكد بأن طبقة المثقفين

يؤمنون بالإله الواحد الذي يدعى "إسوارا" (Iswara) خلافا لغيرهم الذين يؤمنون بتعدد الإله(٣٠).

٦) التزام البيروني الصبر والاتزان والخلق الحسن والموضوعية عند دراسته لعقائد الهنود وتعامله مع أصحاب الخرافات وغير المتعلمين والسذج منهم حيث كان يتمتع بثقة وثقافة ومهارات عالية جدا.

٧) وعن هويته الإسلامية يقول محمد أسلم: "... فالبيروني بصفته عالما مسلما أخرج هذا الكتاب **كتاب الهند** حول الهنود والذين هم ليسوا من "أهل الكتاب" ولكن هم كفار، وثنيون، وعبدة أصنام، ذوو تقاليد لايستسيغها، وأصحاب نمط في الحياة غير مقبول له، ونشاطاتهم اليومية تبدو له وكأنها معاكسة تماما لما هو متعود عليه. ولكن البيروني كان محبا للمعرفة وبطلا للحق، وأينما كتب عن الهنود كانت مشاعر الحق والدقة هي التي تسيره وليست مشاعر الحب والكره"(٣١).

وختاما يتضح لنا جليا أن ما قدمه البيروني في نظامه المعرفي عن الديانة الهندية ما هو إلاّ حقائق ووثائق بنيت على إطار محدد من الوعي والإدراك المباشر من العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، وليست افتراضات كامنة تعتريها العواطف الشخصية.

هوامش

* ملاحظة: تمت ترجمة النصوص من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية من قبل الكاتب.

١- أبو الفتح محمد عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل** تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل (بيروت، دار الفكر، بدون تاريخ) ص ١٠.

٢- طه الهاشمي، **تاريخ الأديان وفلسفتها** (بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٣) ص ١٧.

٣- طه الهاشمي، نفس المصدر، ص ١٨.

4- Edward C. Sachau (ed.) Alberuni's India. Vol. I& II (London: Kegan Paul, Trench, Trubner, 1910) pp. 408 & 431 respectively.

٥- علي أحمد الشحات، أبو ريحان البيروني: **حياته، مؤلفاته، أبحاثه العلمية** (مصر، دار المعارف، ١٩٦٨م)، ص ٢١٥.

6- Sayyed Hossein Nasr. "Al-Biruni as Philosopher", in, Al-Biruni: Commemorative Volume, Kamar Oniah KamaruZaman. "Early Muslim انظر أيضا Hakim Mohammad Said (ed.) p. 401; Scholarship in Religionswissenchaft: *A Case Study of the Works and Contributions of Abu Rayhan Muhammad Ibn*

Ahmad Al-Biruni" Ph.D Thesis submitted to the International Institute of Islamic Thought and Civilization (ISTAC) (Kuala Lumpur, 1996) p. 48.

٧- علي أحمد الشحات، نفس المصدر، ص ٢٣٣.

8- Al-Biruni: Commemorative Volume. (Calcutta: Iran Society, 1951) pp.291; Kakim Mohammad Said (ed.) Al-Biruni: Commemorative Volume. (Pakistan: Ministry of Education, 1973) pp. 827; Ehsan Yarshater (ed.). Biruni Symposium. (New York: Columbia University, Iran Center, 1976) pp. 65.

9- Theodore M. Ludwig. The Sacred Paths: Understanding the Religions of the World. (New York: Macmillan Publishing Company, 1989). p. 270.

١٠- ومعناها اللغوي "الجلوس قرب المعلم" وهي مجموعة من التعاليم السرية تتعلق بالنفس والحقيقة المطلقة، وهي تكون الجزء الأخير من الكتاب المقدس في الهندية فيداز (Vedas).

١١- وهي عبارة عن الواجبات الدينية أو القانون الأخلاقي في الهندية، ويستخدم هذا المصطلح أيضا ليشير إلى الفكر الديني والواجبات الدينية في الديانة الهندية.

12- Theodore M. Ludwig, op. Cit. p. 27.

13- David S. Noss and John B. Noss. A History of the World's Religions. (4th ed.) (Maacmillan Publishing Company, 1990), p. 102.

١٤- علي الشحات، نفس المصدر، ص ٧٠.

١٥- عبدالحليم محمود وعثمان عبد المنعم يوسف، **الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الإسلامي**، (بيروت، منشورات المكتبة العصرية، بدون تاريخ، ص ١١.

١٦- صلاح الدين عبداللطيف الناهي، **الخوالد من آراء أبي الريحان البيروني** (عمان، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م) ص ١٨.

١٧- نفس المصدر، ص ١٨.

١٨- استخدام مصطلح "المقايسة" بدلاً من "المقارنة" في دراسة الأديان تم استنتاجه من خلال هذا البحث، إذْ يشير المفهوم إلى المعيار والميزان والمنهج والطريقة التي يمكن للباحث من خلالها دراسة الأديان بصورة دقيقة ومنضبطة وعادلة، فـ: "القياس" في اللغة يطلق على ما يقابل السماع، وفي المنطق "قول مؤلف من قضايا إذا سلمت لزم عنها قول آخر"، و "القياسي" ما يجري على القياس، و "المقياس" هي الآلة التي تستخدم لقياس مقادير الأشياء. لذلك فإن مصطلح "المقايسة" في هذه الورقة يشير إلى تبني منهج الموضوعية والتزام الحيادية في دراستنا للأديان وكما هو نموذج بدأه البيروني في دراسته للديانة الهندية خلافا "للمقارنة".

أما مصطلح "المقارنة" فيطلق لغوياً على مقابلة أو معارضة الشيء بالشيء. وعن طريق "المقارنة" في حقل دراسة علم الأديان فقد كان المصطلح أول ما استخدم أكاديمياً في أوربا الغربية على يد العالم الألماني ماكس مولر (Max Muller) عام ١٨٧٣م، كذلك من خلال تأسيس أول قسم لـ "مقارنة الأديان" في العاصمة السويسرية آنذاك جنيف عام ١٨٧٣م، وفي هولندا عام ١٨٧٧م وفي فرنسا عام ١٨٨٦م، حيث أن طبيعة هذه الأقسام كانت تبحث في خلفية وماهية "العهد القديم" و "العهد الجديد" والفلسفة اللاهوتية اليهودية

المسيحية التي تسود المجتمع الغربي. ومن الممكن لطريقة "المقارنة" أن تؤدى بالباحث إلى الميول الشخصي والمفاضلة وعدم التوازن في موضوع البحث ومنهجيته. وهذا ما نجده اليوم في كثير من كتب الأديان، خاصة الكتب المقررة أكاديمياً في المؤسسات التعليمية بأوربا وأمريكا الشمالية. لذلك فإن طريقة "المقارنة" التي استخدمها البيروني في منهجيته العلمية لدراسة الديانة الهندية يمكن أن تكون الأساس العام في تشكيلة نظامه المعرفي حيث يمكن أن تساعد الطالب في حقل دراسة الأديان وذلك باستخدام منهج "المقايسة" بدلا من "المقارنة".

19- Louise Marlow. "Some Classical Muslim Views of the Indian Caste System", in The Muslim World. Vol. xxxv, No. 1-2, January -April, 1995, pp. 14-15.

٢٠- صلاح الدين عبد اللطيف الناهي، نفس المصدر، ص ٤٦.

٢١- عبدالحليم محمود، وعثمان عبد المنعم يوسف، نفس المصدر، ص ٢٤.

٢٢- صلاح الدين عبد اللطيف الناهي، نفس المصدر، ص ١٨.

٢٣- عبد الحليم محمود، وعثمان عبد المنعم يوسف، نفس المصدر، ص ٢٣.

٢٤- نفس المصدر، ص ١٦-١٧.

٢٥- نفس المصدر، ص ٢٠.

٢٦- صلاح الدين المنجد "البيروني واللغة العربية"، في
Al-Biruni: Commemorative Volume. Hakim Mohammad Said (ed.) p. 780.

27- Arvind Sharma. Studies in "Alberoni's India". (Germany: Otto Harrasswitx, 1983) p. 135-136.

28- Bruce B. Lawrence. "Al-Biruni's Approach to the Comparative Study of Indian Culture", in Biruni Symposim. Ehsan Yarshater (ed.) p. 35.

29- Bruce B. Lawrence. "Al-Biruni's Approach to the Comparative Study of Indian Culture", p. 31.

30- Edward C. Sachau (ed.) Al-Biruni's India. p. 31.

31- Mohammad Aslam. "Al-Biruni's Methodology in India", in Al-Biruni Commemorative Volume. Hakim Mohammad Said (ed.) p. 329.

* * * *